(32) - H.G. Pflaum, les carrières procuratoriennes equestres sous le haut empire romain, tome 1, Paris, 1960, no 50, pp. 114-117.

(33) - Corpus Inscriptionum Latinarum, XVI, no 159.

(34) - M. Rachet, op. cit., p. 151.

اللغة والكتابة النوميدية

أ. محمد الهادي حارش

أ - اللغة

إن اللهجات القبائلية والشاوية والميزابية والشرشالية (الشنوية) والتارقية والشلحية التي ما زالت منتشرة في بعض مناطق الجزائر والمغرب الأقصى حاليا، مشتقة من اللغة الليبية التي كانت اللغة المشتركة للمغاربة القدماء في كامل المنطقة الممتدة من سيوة شرقا إلى جزر الكناري غربا، ومن ضفاف البحر الأبيض المتوسط شمالا إلى أطراف مالي والنيجر جنوبا، والمعروفة لدينا بما يصطلح عليه بالأمازيغية.

وقد استطاع هؤلاء الأسلاف نقلها إلينا رغم عواقب الدهر والمنافسة التي تعرضت لها عبر التاريخ من اللغات الوافدة بدءا بالفنيقية إلى اللاتينية والإغريقية(1).

ب - الكتابة

كانت توجد في البلاد المغاربية قديما كتابة خاصة، عرفت في الممالك المحلية، وتم إستخدمها من طرف بعض المواطنين(2)، وهي تحتوي على ثلاثة وعشرين حرفا على ما يذكر الأسقف فولجانتيوس FULGENTIUS وتعرف بالكتابة الليبية وأحيانا النوميدية، ومنها اشتقت الكتابة التيفيناغية(3).

يعد نص دوقة المزدوج – بونيقي – ليبي – أول وثيقة مؤرخة بدقة، وهو عبارة عن كلمة إهدائية من معبد أقيم لماسنسان في السنة العاشرة من حكم إبنه مكوسان أي سنة 139 ق م. نقش مزدوج آخر عثر عليه في نفس المنطقة يخلد إقامة ضريح قد يعود إلى نفس الفترة، وكذا نصوص ليبية أخرى من نفس المنطقة مرتبة في خطوط أفقية(4).

لم تختف الكتابة الليبية في الفترة الرومانية، إذ عثر على العديد من النصب الليبية – البونيقية الجديدة أو الليبية – اللاتينية(5)، واستمرت كذلك في نهاية العصور القديمة مع ما يعرف إصطلاحا بالنقوش الصخرية الليبية – البربرية التي يعثر عليها في مختلف مناطق بلاد المغرب: جنوب وهران، المغرب الأقصى، إقليم طرابلس، برقة، وفي مناطق متفرقة من الصحراء، وهي النقوش التي يرى جميس فيفري أنها تقدم شكلا من الكتابة الإنتقالية بين الكتابة الليبية والكتابة التيفيناغية المشتقة منها(6).

رغم أن كتابة الطوارق مشتقة من الليبية القديمة، غير أننا نجد أن بعض حروف «التيفيناغ» لا تقدم نفس النطق الذي تقدمه الحروف الليبية التي تماثلها بالضبط في الشكل(7)، وحروف أخرى لا توجد في الكتابة القديمة(8)، وعليه تم إستخدام النقشين المزدوجين المشار إليهما أعلاه كقاعدة في فك رموز الكتابة الليبية إنطلاقا من أسماء الأعلام.

ومن ضمن العلماء الأوائل الذين ساهموا في ذلك يمكننا ذكر سولسي (Saulcy) جوداس (Judas)، هاليفي(J. Halevy)، شابو(J.B. Chabot)، مينهوف (C. Meinhof)، وجورج مارسي(9) (G. Marcy).

أما عن إتجاه الكتابة الليبية، فهو متغير، ففي نقوش دوقة التي منها النقشان المزدوجان المذكوران أعلاه، نجد الحروف مرتبة في شكل أفقي، تقرأ من اليمين إلى اليسار بتأثير – ربما – من الكتابة البونيقية الموجودة معها في النقوش(10)، وفي حالات أخرى نجد الكتابة موضوعة في صفوف عمودية متوازية تقرأ من الأسفل إلى الأعلى والبداية من اليسار.

ويرى فيفري أن الكتابة العمودية هذه أقدم من الكتابة الأفقية(11)، والمرور من الكتابة العمودية إلى الكتابة الأفقية تسبب في حالات كثيرة في تغيير إتجاه الحروف(12)، أما في التيفيناغ، فنجد إتجاه الكتابة عادة من اليمين إلى اليسار تأثرا بالحرف العربي(13).

– أصل الكتابة الليبية: كون الكتابة الليبية كتابة صوتية (phonitique) تماما، وليست كتابة مقطعية(14) مثلما هو في كتابات قديمة أخرى، وكونها أبجدية حقيقية لا تحتوي إلا على عدد قليل من الحروف الصامتة (Consonnantique) فقط، حير قزال(15) الذي تساءل في البداية أن لم يستخدم الأهالي نظاما تصويريا، كانت فيه الصورة تعيد الأشياء أو الأشخاص، قبل أن تتطور لاحقا إلى علامات صوتية أخذت مظهرا خطيا بالتغيير والتبسيط؟ وبعد أن يجيب بالنفي عن هذا السؤال، يتساءل أيضا عن الرموز التي تظهر على الرسوم الصخرية والشبيهة بالأبجدية الليبية(16) إن لم تكن عناصر كتابية، خاصة وأن عدد الحروف نفسه في بعض الرسوم يمكن أن يشير إلى تسلسل عدة أفكار؟ مما جعله يفترض أن عددا منها استخدم دون أي تأثير أجنبي لتشكيل أبجدية ليبية خاصة(17)، لكنه يتراجع ويرفض هذه الفرضية لا لشيء سوى لإيمانه يعجز الأفارقة على مثل هذا الإبداع الذي يشرفهم حسب تعبيره»(18)، وجعله يتساءل إن لم تكن من تأثيرات أجنبية؟ وبعد أن يستبعد التأثيرات الإيجية والإغريقية القديمة والعربية القديمة لمختلف الأسباب الموضوعية: بالنسبة للكتابة الإيجية يلاحظ كثرة عدد الحروف فيها وكونها كتابة مقطعية(19) شأنها شأن الكتابة القبرصية التي اشتقت منها، بينما الكتابة الليبية كتابة أبجدية، أما الإغريقية العتيقة، فإن كانت أبجدية هي الأخرى، وتحتوي بعض الحروف المتشابهة في الشكل واللفظ مع الليبية، فالحروف المختلفة أكثر، فضلا على أنها تحتوي لا على الحروف المتحركة فقط، لكن أيضا الحروف الساكنة وبالتالي يتساءل لو تبناها الأفارقة لماذا يتخلون عن الحروف الساكنة؟.

أما عن الأبجدية العربية، فيرى أيضا أن التشابه بينها وبين الألفباء الليبية محدود في بعض الحروف، وأن وجود علاقات ثقافية متواصلة بين البلاد العربية وشمال إفريقيا – باستثناء مصر – في الألف الأولى ق م. مسألة لا تتجاوز كونها إفتراض وهذا ما أخذ به أغلب المؤرخين الفرنسيين(20).

بعد أن يستبعد قزال هذه الأبجديات، تبقى الأبجدية الفنيقية، وهنا أيضا يستبعد الأبجدية القرطاجية التي تقدم شكلا مختلفا جدا عن الألفباء الليبية في القرن الثاني ق م. قبل أن يشير إلى العلاقات المستمرة التي قامت بين الفنيقيين والأفارقة منذ القرن الثاني عشر ق م. وبالتالي ضرورة ربط الكتابة الليبية بأقدم النقوش الفنيقية، وهنا أيضا يلاحظ أن الحروف المختلفة أكثر بكثير من الحروف المتشابهة، مما جعله يفترض تعديلا واسعا لها من طرف الأهالي الذين لم يحتفظوا إلا ببعض الحروف(21)، قبل أن يقترح إحتمالين إثنين آخرين:

1) – الألفباء الليبية لم تشتق من الألفباء الفنيقية مباشرة، لكن الأبجديتين مشتقتان من ألفباء قديمة جدا، تكون قد إنبثقت عنها كتابات أخرى، وبذلك يبرر التشابه الظاهري العام، والتشابه في الشكل والنطق لبعض الحروف، وفيما يخص الإختلافات كانت نتيجة التغيير والانتقاء، وهي فريضة يدعمها فلاندرس بترى (Flinders Petrie)، ولا تحمل دليل وجود هذه اللغة الأم، وتصطدم باعتراضات قوية.

2) – يكون الأفارقة قد تبنوا «نظام كتابة» يرتكز على إستخدام عدد قليل من الرموز البسيطة، لكن لم يتبنوا «شكل الحروف» الفنيقية باستثناء أربعة أو خمسة التي تشبه تماما العلامات أو الرموز التي كانوا يستخدمونها منذ وقت طويل(22)، بالنسبة لباقي حروف أبجديتهم يكونون قد إستمدوها من مجموعة هذه العلامات(23)، وهو ما يعني في رأينا أن هذه الأبجدية أصيلة، وهو رأي فريدريك (J. Friedrich) الذي يعتقد بأن الكتابة الليبية نشأت نشأة مستقلة، ولا شيء يشركها بالكتابات السامية غير المبدأ، مستدلا على ذلك بـ:

1 - عدم تطابق الحروف الليبية مع أية حروف سامية، بإستثناء حروف محدودة جدا.

2 - الكتابة الليبية خلافا للكتابات السامية تدوّن الحروف الساكنة الأولية.

3 - الحروف مرتبة في الأصل من أسفل إلى أعلى، وليس من اليمين إلى اليسار مثلما هو في الفنيقية، وهو ما جعله يستخلص أنه إذا تعرضت الكتابة الليبية لتأثيرات بونيقية لاحقا، فهي لم تكن أقل أصالة في نشأتها(24).

الهوامش

(1) – انظر: Decret (F.) Fantar (M.), L'Afrique du Nord dans l'antiquité des origines au 5è siècle, Ed. Payot, (Paris 1980), p. 35.

(2) – حول قدم الكتابة الليبية انظر:

Camps (G.), "Recherches sur les plus anciennes inscriptions Libyques de l'Afrique du Nord", Bulletin archéologique (N.S) T. 10-11 (1974-75), pp. 143-166.

Fulgence, De actibus mundi et hominis, Preface, - 3 ed. Helm, p. 131.

ويذكر جيمس فيفري أنه إذا كانت نقوش دوقة الأفقية تبدو لا تحتوي إلا على إثنين وعشرين حرفا، فهذا العدد يتعدى إلى أربعة وعشرين حرفا في النصوص الموضوعة عموديا.

(3) – انظر: James G. Fevrier, Histoire de l'écriture, Ed. Payot (Paris 1948), p. 318.

(4) – انظر: شكل 1 ص 316.

(5) – Gsell (St), H. A.A.N., T.6, p. 94.

(6) – Loc. Cit.

(7) – James G. Fevrier, op. cit, pp. 322-324.

(8) – يرى شابو (J.B. Chabot) أنه لا يمكن الاعتماد على الأبجدية التيفيناغية لتحديد قيمة الرموز الليبية غير المحددة مثلما فعل Duveyries لأن هناك بعض الرموز المتشابهة في الشكل المختلفة القيمة بفعل الزمن منها: O ينطق بـ B في الليبية س S في التيفيناغية X ينطق ف F في الليبية وفي التيفيناغية. انظر: Chabot (J.B), Inscription neo-punique de Teboursouk, J.A. (1981) p. 226.

(9) – رغم أن كتابة الطوارق مشتقة من الليبية القديمة غير أن بعض الحروف أخذت قيمة صوتية مخالفة، بينما ابتدعت حروف أخرى حتى تستجيب للاحتياجات الجديدة الناجمة عن تسرب أسماء ومصطلحات جديدة إلى لغة الأهالي وخاصة العربية. حول هذا الموضوع انظر:

Borger (Ph), Histoire de l'écriture dans l'antiquité, 2 éd. imp. nationale (Paris 1842), p. 325.

De Sauley, "Inscription bilingue du mausolee - de Dougga", J.A. (1843- 1); Judas (A.C.), l'écriture et la langue berbere dans l'antiquité et de nos jours, (Paris 1863); J. Halevy, "Etudes berberes, J.A. (1874 I-II) (1884 - I); Chabot (J.B.); "Note sur l'alphabet libyque, C.R.A.I. (1977), p. 558-563.

Flamand (G.B.M), Les pierres écrites (Hadjart maktoubat), Gravures et inscriptions rupestres du Nord Africain, Ed. Masson et Cie, (Paris 1921), pp. 69, 115 à 356.

Gsell (St), "Notes d'archeologie algérienne", B.A.C. (1899),pp. 440, 441), ID. Les monuments antiques de l'Algérie (2 Vol), Ed. Fontemoing (Paris 1901), T1, pp. 47-49.

Blanchet (M.), "Excursion archéologiques dans le Hodna et le Sahara", Rec. de Constantine, T33, (1899), p. 304.

Meinnof, Die Libyshen inscritten (1931).

(10) – G. Marcy, "Les inscriptions libyques de l'Afrique du Nord", in C.S.A. T.5, (1936), Faidherbo, Collection complète des inscriptions numides, 1870.

(11) – Gsell (St), H.A.A.N., T.6, p. 95; Fevrier (J.G.), op. cit, pp. 322-24.

(12) – قارن بين حروف الكتابة العمودية والكتابة الأفقية في شكل 2، ص 318.

(13) – Fevrier (J.G.), Loc. cit.

(14) – Cf. Fevrier (J.G.) Loc. cit.

(15) – Gsell (St), H.A.A.N., T.6, p. 101.

(16) – حول هذه الرسوم التي تؤرخ بالألف الثانية ق م، انظر:

حيث نلاحظ رموزا تتطابق مع الأبجدية الليبية، مما يجعلنا نفترض معرفة الليبيين للكتابة منذ هذه الفترة المبكرة نسبيا.

(17) – Gsel (St), H.A.A.N., T. 6, pp. 102-103.

(18) – المرجع نفسه.

(19) – الكتابة المقطعية (L'écriture Syllabique) هي: كتابة يتمثل فيها كل مقطع بحروف.

(20) – فضلا عن قزال، ج 6، ص 15، انظر: أيضا فيفري، المرجع السابق، ص 322.